

الصوت اللغوي في فواصل الآيات القرآنية
Linguistic sound in the breaks of the verses of the Qur'an

Prof. Dr. Mohammed Hussein Ali Al Sagheer

أ. د. محمد حسين علي الصغير

Faculty of Jurisprudence/University of Kufa

كلية الفقه / جامعة الكوفة

ملخص

مصطلح الفاصلة في القرآن الكريم.

الفاصلة في القرآن الكريم: آخر كلمة في الآية، كالفافية في الشعر، وقريئة السجع في النثر، خلافاً لأبي عمرو الداني (ت: ٤٤٤ هـ) الذي اعتبرها كلمة آخر الجملة^(١). إذ قد تشتمل الآية الواحدة على عدة جمل، وليست كلمة آخر الجملة فاصلة لها، بل الفاصلة آخر كلمة في الآية. ليعرف بعدها بدء الآية الجديدة بتمام الآية السابقة لها.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣ هـ): الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع، يقع بها إلهام المعاني.

وتقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وتسمى فواصل، لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها.

الكلمات المفتاحية: الصوت، اللغوي، الفواصل، الآيات، القرآنية.



Abstract

The comma in the Holy Quran: It is the last word in the verse, like the rhyme in poetry, and the evidence of rhyme in prose, contrary to Abu Amr Al-Dani (d. 444 AH) who considered it the word at the end of the sentence. As one verse may include several sentences, and the word at the end of the sentence is not a comma for it, but the comma is the last word in the verse, so that after it the beginning of the new verse is known by the completion of the previous verse.

Judge Abu Bakr Al-Baqillani (d. 403 AH) said: The commas are similar letters in the sections, through which the meanings are understood.

The comma occurs when resting in speech to improve the speech with it, and it is the way in which the Quran differs from the rest of the speech, and it is called a comma, because the two speeches are separated at it, and that is because the end of the verse separates it from what follows it.

Keywords: Sound, linguistic, breaks, verses, Quranic.



العدد: ١
السنة: ١٠
٢٠٠٥ هـ / ٢٠٠٥ م



مصطلح الفاصلة في القرآن الكريم.

الفاصلة في القرآن الكريم: آخر كلمة في الآية، كالقافية في الشعر، وقرينة السجع في النثر، خلافاً لأبي عمرو الداني (ت: ٤٤٤ هـ) الذي اعتبرها كلمة آخر الجملة^(١). إذ قد تشتمل الآية الواحدة على عدة جمل، وليست كلمة آخر الجملة فاصلة لها، بل الفاصلة آخر كلمة في الآية، ليعرف بعدها بدء الآية الجديدة بتمام الآية السابقة لها.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني (ت: ٤٠٣ هـ): الفواصل حروف متشكلة في المقاطع، يقع بها إفهام المعاني^(٢).

وتقع الفاصلة عند الاستراحة بالخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي يباين القرآن بها سائر الكلام، وتسمى فواصل، لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها.

وقد تكون هذه التسمية اقتباساً من قوله تعالى: (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ)^(٣) ولا يجوز تسميتها قوافي إجماعاً لأن الله لما سلب عن القرآن اسم الشعروجب سلب القافية عنه أيضاً لأنها منه، وخاصة في الاصطلاح^(٤).

وما ورد في القرآن متناسق حروف الروي والإيقاع، موحد خاتمة الفاصلة بالصوت، ويقف فيه بالآية على الحرف الذي وقف عنده في الآية التي قبلها، فلا يسمى سجعاً عند علماء الصناعة ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال: هو سجع معجز، لجاز أن يقولوا: شعر معجز، وكيف والسجع مما كان تألفه الكهان من العرب، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر، لأن الكهانة تنافي النبوات بخلاف الشعر.
(٥).

إذن لم يسموها أسجاعاً، ولم يصطلحوا عليها قوافي، إذ استبعدوا تسميتها بالقوافي تكريماً للقرآن بأن يقاس على منظوم كلام البشر، وستأتي

معالجة هذا الرأي فيما بعد، وأما تجنب تسميتها سجعاً. فلأن أصله من سجع الطير، فشرّف القرآن أن يستعار لشيء فيه لفظ هو أصل في صوت الطائر، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في اسم السجع الواقع في كلام آحاد الناس^(٦).

والمدرک الأول يساعد عليه مقتضى تفسير اللغة، وأصول إرجاع المصطلحات إلى قواعدها الأولى، قال ابن دريد (ت: ٣٢١ هـ): سجعت الحمامة معناه: رددت صوتها^(٧).

والمدرک الثاني يساعد عليه الاعتبار العام، وتبادر الذهن في الفهم، فقد شاع السجع بين العرب في الجاهلية، واقتسمه كل من الخطباء والكهّان والمتنبئين، وتوازن استعماله متفرقاً بين أصناف من الناس.

يبدو مما سلف أن مما تواضع عليه جهابذة الفن، وأئمة علوم القرآن، يضاف إليهما علماء اللغة، هو: أن نهاية بيت الشعر تسمى قافية، ونهاية جملة النثر تسمى سجعاً في الأسجاع، ونهاية الآية تسمى فاصلة.

وهذا التفريق قائم على أساس يجب أن نتخذه أصلاً، وبرنامج ينبغي القول به دون سواه، وهو أن الكلام العربي – مطلقاً على ثلاثة أنواع: قرآن، نثر، شعر، فليس القرآن نثراً وأن أستعمل جميع أساليب النثر عند العرب، وليس القرآن شعراً وأن اشتمل على جميع بحور الشعر العربي حتى ما تداركه الأخفش على الخليل فسمي متداركاً، وهو الخبب، بل هو قرآن وكفى ﴿إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾^(٨).

قال الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ): وقد سمي الله كتابه المنزل قرآنًا، وهذا الاسم لم يكن حتى كان^(٩)، وإذا تم هذا فهو كلام الله تعالى وحده، وأنى يقاس كلام البشر بكلام الله، هو إذن متميز حتى في التسمية عن كلام العرب تشريفاً له، واعتداداً به، وإن وافق صور الكلام العربي، وجرى على سننه في جملة من الأبعاد، كما يقال عند البعض، أو كما يتوهم، بأن ختام



العدد: ١
السنة: ١
٢٠٢٠ هـ / ٢٠٢٠ م



فواصله المتوافقة هي السجع، فالتحقيق يقتضي الفصل بين الأمرين، لأن مجيء كثير من الآيات على صورة السجع لا توجب كونه هو، أو أنها منه لأنه قد يكون الكلام على مقال السجع وإن لم يكن سجعاً، لأن السجع من الكلام، يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك مما هو في معنى السجع من القرآن، لأن اللفظ وقع فيه تابعاً للمعنى، وفرق بين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ، وبين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه، ومتى ارتبط المعنى بالسجع كان إفادة السجع كإفادة غيره ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى^(١٠).

وقد رأينا عند تعقب هذه الظاهرة: أن التعبير المسجوع في القرآن لا يفرضه طبيعة النسق القرآني فحسب كما يخيل للكثيرين عند النظر في مثل قوله تعالى: ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(١١) بدليل أنه ينتقل منه فوراً إلى نسق آخر في فاصلة تقف عند النون دون التفتات إلى الصيغة الأولى السارية في طريقها البياني (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ* ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ)^(١٢)

فإذا جاز للقرآن الانتقال بها، جازله الانتقال فيما قبلها كما هو ظاهر، بل أن هذا اللفظ المقابر يفرض نفسه فرضاً بيانياً قاطعاً، دون حاجة إلى النظر في الفاصلة معه، أو مع محسنات الفاصلة، وذلك أن هذا الإنسان المتناسي الطاغي المتكاثر بأمواله ولذاته، وشهوته، ومدخراته، ونسائه، وأولاده، ودوره، وقصوره، وخدمه، وحشمه، وإدارته، وشؤونه، وسلطانه، وعنوانه، وهذا كله تكاثر قد يصحبه التفاخر، والتمايز، والتنافر، أقول: إن هذا مما يناسبه لفظ المقابر بلاغياً ولغوياً، فالمقابر جمع مقبرة، والمقبرة الواحدة مرعبة هائلة، فإذا ضمنا مقبرة مترامية الأطراف إلى مقبرة مثلها، ومقبرة أخرى، ازددنا إحاشاً ورعباً وفزعاً، فإذا أصبحت مقابر عديدة

تضاعف الرعب الرهب، أذن هذا التكاثر الشهواني في كل شيء، يوافقه - بدقة متناهية - الجمع المليونية للقبور، لتصبح مقابر لا قبوراً، ولو قيل في غير القرآن بمساواة القبور للمقابر في الدلالة لما سدّ هذا الشاغر الدلالي شيء آخر من الألفاظ، فهو لها فحسب^(١٣).

فإذا أصبحت مقابر عديدة 'تضاعف الرعب الرهب، إذن هذا التكاثر الشهواني في كل شيء، يوافقه - بدقة متناهية - الجمع المليونية للقبور، لتصبح مقابر لا قبوراً، ولو قيل في غير القرآن بمساواة القبور للمقابر في الدلالة لما سدّ هذا الشاغر الدلالي شيء آخر من الألفاظ، فهو لها فحسب^(١٣).

إذن ليست هذه الصيغة البلاغية في استعمال المقابر مجرد ملائمة صوتية للتكاثر، وقد يحسّ أهل هذه الصنعة ونحن معهم فيها ؛ نسق الإيقاع، وانسجام النغم، ولكن ليس هذه كل شيء^(١٤).

ولا يعني هذا التغافل عن مهمة الانسجام الصوتي، والوقع الموسيقي في ترتيب الفواصل القرآنية، فهي مرادة في حد ذاتها إيقاعياً، ولكن يضاف إليها غيرها من الأغراض الفنية، والتأكيدات البيانية، مما هو مرغوب فيه عند علماء البلاغة، فقواه تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ* وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ*﴾^(١٥). فقد تقدم المفعول به في الآيتين، وهو اليتيم في الأولى، والسائل في الثانية، وحقه التأخير في صناعة الإعراب، وقد جاء ذلك مراعاة لنسق الفاصلة من جهة، وإلى الاختصاص من جهة أخرى، للعناية في الأمر.

ولعل ابن الأثير (ت: ٦٣٧هـ) كان مصيباً جداً حينما أرجع ذلك إلى الاختصاص ونظم الكلام، ولم يقل بأحدهما^(١٦). بينما عاد بها إبراهيم أنيس إلى مراعاة موسيقى الفاصلة القرآنية إذ لا يصح للمفعول أن يسبق ركني الإسناد في الجملة المثبتة كما يزعم أصحاب البلاغة^(١٧).

وقد رده الدكتور أحمد مطلوب في هذا الملحق، لأن الهدف ليس القهر والنهر في المقام الأول، وإنما الرُجحة باليتيم والسائل، ولذلك تقدم المفعولان على فعليهما، ولو كان القصد غير ذلك لتأخرا وجاءا على نسق الكلام المحفوظة رتبته^(١٨) ومهما يكن من أمر، فإن السجع عند العرب مهمة لفظية تأتي لتناسق أواخر الكلمات في الفقرات وتلاؤمها، فيكون الإتيان به أنى اتفق لسد الفراغ اللفظي، وأما مهمة الفاصلة القرآنية فليس كذلك، بل هي مهمة لفظية معنوية بوقت واحد، إنها مهمة فنية خالصة، فلا تفرط في الألفاظ على سبيل المعاني، ولا اشتطاط بالمعاني من أجل الألفاظ، بينما يكون السجع في البيان التقليدي مهمة تنحصر بالألفاظ غالباً، لذلك ارتفع مستوى الفاصلة في القرآن بلاغياً ودلالياً عن مستوى السجع فنياً، وإن وافقه صوتياً.

وهنا نشير إلى أن ابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦ هـ) قدر جزءاً من هذه المفاضلة بين السجع والفاصلة، وخلص إلى سبب التسمية في معرض نقاشه لعلي بن عيسى الرماني؛ وأما قول الرماني إن السجع عيب، والفاصل على الإطلاق بلاغة فغلط، فإنه إن أراد بالسجع ما يتبع المعنى، وكأنه غير مقصود فذلك بلاغة، والفواصل مثله، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعة له، وهو مقصود متكلف، فذلك عيب، والفاصل مثله... وأظن أن الذي دعا إلى تسمية كل ما في القرآن عن الوصف ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعاً رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم، وهذا غرض في التسمية قريب^(١٩).

ويلحظ من النص، أنه يغيب ما ينافي البلاغة سواء أكان سجعاً أم سواه، ويشير إلى ناحيتين:

الأولى: أن الفواصل هي كل ما في أواخر الآيات تماثلت حروفه أو لم تتماثل خلافاً للسجع المتماثل الحروف.



الثانية: أن اختصاص أواخر الآيات بتسمية الفواصل إنما وقع لرغبتهم أن لا يوصف كلام الله تعالى بالكلام المروي عن الكهنة لا مطلق السجع.

معرفة فواصل القرآن صوتياً:

من أجل تمييز الفاصلة، ومعرفتها صوتياً، علينا تتبع فواصل الآيات بالدقة والضبط، في تنقلها في القرآن عبر مسيرتها الإيقاعية.

قال إبراهيم بن عمر الجعبري (ت: ٧٣٢ هـ): لمعرفة الفواصل طريقان: توقيفي وقياسي. أما التوقيفي: فما ثبت أنه وقف عليه دائماً، تحققنا أنه فاصلة، وما وصله دائماً، تحققنا أنه ليس بفاصلة.

وأما القياسي فهو ما ألحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص لمناسب، ولا محذور في ذلك، لأنه لا زيادة فيه ولا نقصان، والوقف على كل كلمة جائز، ووصل القرآن كله جائز، فاحتاج القياس إلى طريق تعرفه، فنقول: فاصلة الآية كقرينة السجعة في النثر، وقافية البيت في الشعر، وما يذكر من عيوب القافية من اختلاف الحد والإشباع والتوجيه فليس بعيب في الفاصلة، وجاز الانتقال في الفاصلة، والقرينة، وقافية الأرجوزة بخلاف قافية القصيدة (٢٠).

ومن هنا كان التنقل في فواصل القرآن، إذ لا يلتزم فيها الوقوف عند حرف معين في مواضع من السور، ويلتزمه في مواضع أخرى، ويجمع بين الالتزام وعدمه في بعض السور، لأن الانتقال من الوقوف على حرف إلى الوقوف على حرف آخر، أو صيغة تعبيرية أخرى في فواصل القرآن أمر مطرد وشائع، ونماذجه هائلة، كما أن الالتزام شائع أيضاً، والجمع بينهما واردٌ كذلك، ومن هنا تبرز ثلاثة ملامح على سبيل المثال:



العدد: ١
السنة: ١
٢٠٠٥ هـ / ٢٠٠٦ م





الأول: جمع القرآن بين تحشرون والعقاب وهما مختلفان في حرف الفاصلة والزنة في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ* وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٢١).

وفي السورة نفسها جمع بين تعلمون وعظيم (٢٢). وهذا مطّرد في القرآن بالآلاف الأمثلة.

الثاني: الوقوف عند حرف معين لا يتغير في الفاصلة كما في سور عدة ونماذج متعددة، فمن أمثلته عادة جملة من السور القصار، كالقدر، والعصر، والفيل، والليل، والكوثر، والإخلاص، والناس، وجملة من السور الوسطى كالأعلى والقمر، وفيها جميعاً مراعاة للمنهج الصوتي، والبعد الإيقاعي، ويتجلى النغم الصوتي المتميز بأبهى صوره، وأروع مظاهره في سورة القمر، إذ تختتم فيها الفاصلة بصوت الراء مردداً بين طرف اللسان وأول اللهاة مما يلي الأسنان.

الثالث: الوقوف عند حرف معين للفاصلة في بعض السور، والانتقال منه للوقوف عند حرف آخر للفاصلة في بعضها الآخر، وأمثلته متوافرة في جملة من سور القرآن، كالنبأ، والمرسلات، والنازعات، والتكوير، والانفطار، والمطففين، وأنظر إلى قوله تعالى في سورة عبس وهي تواكب صوت الهاء في فواصل عدة آيات، ثم تنتقل إلى الراء الملحقة بالتاء القصيرة بعدها في آيات آخر: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ، الْفَجَرَةُ﴾ (٢٣).

وقد لا يراد الملحظ الصوتي مجرداً عند الأبعاد الأخرى في فواصل الآيات، فقد يجتمع في الفاصلة الغرض الفني بجانب الغرض الديني،

فتؤدي الفاصلة غرضين في عمل مزدوج، فمن أبرز الصور الاجتماعية الهادفة في سورة البلد: آيات العقبة، وتفصيلات يوم القيامة، في تجاوز مظاهر الغل والقيد، ومراحل الفقر والجوع ليتم تجاوز العقبة الحقيقية في القيامة، ولأيتم ذلك إلا بتجاوز عقبات الظلم الاجتماعي، وتخطي مخلفات العهد الجاهلي، واقتحام القيم التي عطلت الحياة الإنسانية عن مسيرتها في التحرر والانطلاق، وهي قيم قاتلة، وأعراف بالية نشأت عن الطغيان المتسلط، والتفاوت الطبقي المقيت، فالرق ضارب بأطنابه، والاستئثار شكل مجاعة بشرية جماعية، والقطيعة في الأرحام أنهكت الأيتام، والغنى اللامشروع فجر سبيلاً من الأوضار الاجتماعية تشكل رعيلاً سادراً من الأرامل والأيتام والمساكين، ممن ألصقهم الفقر بالتراب، أو لصقوا هم به من الفقر والضر والفاقة، حتى عادوا جزءاً منه، وعاد هو جزءاً من كيانه، فمن التراب وعلى التراب وإلى التراب.

هذا المناخ المزري عقبات متراكمة، من فوقها عقبات متراكمة، وإزالة هذه العقبات تدريباً هو الطريق إلى قفز تلك العقبة الكبرى وتجاوزها، في حياة قوله تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكَّ رَقَبَةً * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ (٢٤). ما هذا الإيقاع المجلجل؟ وما هذه النبرات الصوتية الرتيبة؟ وما هذا النسق المتوازن؟ العقبة، رقبة، مسغبة، مقربة، متربة، أصداء صوتية متلاحقة، في زنة متقاربة، زادها السكت رنة وتأثيراً ولطف تناغم، وسط شدة هائلة مرعبة، وخيفة من حدث نازل متوقع، فالاقترحام في مصاعبه ومكاباته، والعقبة في حراجتها والتوائها ومخاطرها، يتعانقان في موضع واحد، يوحي بالرهبة والفرع. ((والاقترحام هو أنسب الألفاظ للعقبة لما بينهما من تلاؤم في الشدة والمجاهدة واحتمال الصعب، والمناسبة بين اقترحام العقبة وبين خلق الإنسان في كبد، أوضح من أن يحتاج إلى بيان،



والجمع بينهما في هذا السياق، يقدم لنا مثلاً رائعاً من النظم القرآني المعجز: فالإنسان المخلوق في كبد، أهل لأن يقتحم أشد المصاعب، ويجتاز أقسى المفارز، على هدى ما تهياؤه من وسائل الإدراك والتميز، وما فطر عليه من قدرة على الاحتمال والمكابدة^(٢٥).

قال الطبرسي (ت: ٥٤٨ هـ) وهو يتحدث عن هذا السياق: إنه مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال الخير والبر، فجعل ذلك كتكليف صعود العقبة الشاقة الكؤود، فكأنه قال: لم يحمل على نفسه المشقة بعثت الرقبة والإطعام^(٢٦).

وإرادة التأنيب والتعنيف مع الحض والترجيح والتحييب، في صيغة النفي وتقريره، والاستفهام وتهويله، حافز وأي حافز على معالجة هذه المخاوف الاجتماعية السائدة، ودرء هذه المشاكل العالقة في المجتمعات المتخلفة: السغب، اليتيم، المسكنة، إنها آفات متطاولة تنخر في بينة الجسم الإنساني فتهدمه، واقتحامها بحزم يتركها وراء الإنسان مسافات مترامية، وذلك ما يري السبيل إلى تجاوز المترقة الوقوع، في كل معانيها البيانية: حقيقة كانت أو مجازية.

أن ورود هذه الآيات في نسق صوتي متجانس، وصيغة إصلحية هادفة، يضي على الفاصلة القرآنية، جمالها المعهود، وحسها الإيقاعي الهادر، دون تطلع إلى تعبير مماثل أو مغاير، فهي تمتلك النفس، وتأخذ بالإحساس في نظام رتيب؛ فالحرية أولاً، والعطاء المغني ثانياً، بدءاً بالأرحام، وعطفاً على الآخرين، وفيها أخذ بملحظ القرابة والرحم، وحث على تقديم ذوي القربى من المعوزين على الأبعد في فك القيود، وعتق الرقاب، والإطعام بإحسان.



ظواهر الملحظ الصوتي في فواصل الآيات:

الملحظ الصوتي في فواصل الآيات القرآنية قائم على عدة ظواهر،
نرصد منها أربع ظواهر:

الأولى: وتتمثل بزيادة حرف ما في الفاصلة وعناية للبعد الصوتي،
وعناية بنسق البيان في سراعته، ليؤثر في النفس تأثيره الحساس،
فتشرب الأعناق، وتتطلع الأفئدة حين يتواصل النغم بالنغم، ويتلاحم
الإيقاع بالإيقاع، وأبرز مظاهر هذه الظاهرة ألف الإطلاق إن صح التعبير
بالنسبة للقرآن، فقد ألحقت الألف في جملة من الآيات بأواخر بعض
كلماتها، وكان حقها الفتح مطلقاً، دون مدّ الفتحة حتى تكون ألفاً، وانظر
معي في سورة واحدة، إلى كل من قوله تعالى، وكأن ذلك معنيّ بحد ذاته
ومقصود إليه لا ريب:

وقال تعالى: ﴿وَتَخْلُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (٢٧).

وقال تعالى: ﴿فَاضْلُونا السَّبِيلَا﴾ (٢٨).

وقال تعالى: ﴿وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ (٢٩).

يبدو أن إلحاق هذه الإلف في الظنون السبيل الرسول يشكل تلقائياً
ظاهرة صوتية تدعو إلى التأمل، وإلا فما يضير ليفتح لولا الملحظ الصوتي
لأن فواصل هذه السورة منقلبة عن تنوين في الوقف، فزيد على النون ألف
لتساوي المقاطع، وتناسب نهايات الفواصل (٣٠).

وما يقال هنا يقال فيما ورد بسورة القارعة في زيادة هاء السكت
وإلحاقها في هي لتوافق الفاصلة الأولى الثانية في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ
مَاهِيَةً * نَارُ حَامِيَةٍ﴾ (٣١).

وهيأ إلى سورة الحاقة وانظر إلى هاء السكت في إضافتها وإنارتها في جملة
من آياتها، فتقف خاشعاً مهوراً، تمتلك هزة الأعماق وأنت مأخوذ بهذا
الوضع الموسيقي الحزين، المنبعث من أقصى الصدر وأواخر الحلق،



العدد:
العدد ١
السنة: ١
٢٠٠٥ هـ / ٢٠٠٥ م





العدد: ١
السنة: ١
٢٠٠٥ هـ / ١٤٢٦ م



أ. د. محمد حسين علي الصغير

فتتقطع الأنفاس، وتتهجد العواطف، واجمة، متفكرة، متطلعة، فتصافح
المناخ النفسي المتفائل حيناً، والمتشائم حيناً آخر، وأنت فيما بينهما بحالة
متأرجحة بين اليأس والرجاء، والأمل والفرح، والخشية والتوقع، فسبحان
الله العظيم حيث يقول: **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ
اقْرَأَ وَكِتَابِهِ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي
جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قَطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُلْ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ * وَلَمْ
أَدْرَمَا حِسَابِيهِ * يَالَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ * هَلْكَ عَنِّي
سُلْطَانِيهِ** ﴿٣٢﴾.

فأنت تلاحظ الفواصل: كتابيه، حسابيه، ماليه، سلطانيه، قد أزيدت
فيها هاء السكت رعاية لفواصل الآيات المختومة بالتاء القصيرة والتي
اقتضى السياق نطقها هاءً للتوافق. وما زلنا عند الهاء، فتطلع إليها، وهي
ضمير ملصق بالفواصل، غير زائد بل أصلي الوجود، وقد حقق بذلك وقعه
في النفس، وجرسه في الأذن، وقوته في امتلاك المشاعر، قال تعالى: (يَوَدُّ
الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي
تُؤْيِيهِ * وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * ﴿٣٣﴾. فلا زيادة في هذه الهاء، وهي
ضمير في الفواصل كلها، وقد حققت صوتياً مناخ الانتباه، ورصد مواضع
الإصغاء من النفس الإنسانية.

الثانية: وتتمثل بحذف حرف ما رعاية للبعد الصوتي، وعناية بالنسق
القرآني كما في قوله تعالى: ﴿الْفَجْر * وَلَيَالٍ عَشْر * وَالشَّفْعَ وَالْوَتْر * وَاللَّيْلَ
إِذَا يَسُر * ﴿٣٤﴾. فقد حذفت الياء من يسري موافقة للفاصلة فيما يبدو
ومثله قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي
أَكْرَمَنِي * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ ﴿٣٥﴾. فالياء

من اكرمن واهائن قد حذف رعاية لهذا الملحظ، ولما في النون من الغنة عند الوقوف عليها فيما يبدو، ويظهر أن هذا الامر مطرد في جملة من آيات القرآن الكريم في الفواصل ما في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾^(٣٥).

الثالثة: وتتمثل في تأخير ماحقه التقديم، وتقديم ما حقه التأخير، زيادة في العناية بتركيب السياق، وتناسق الألفاظ، وترتيب الفواصل، كما في قوله تعالى: (فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى)^(٣٦). فتأخر الفاعل وحقه التقديم، وعليه يحمل تقديم هارون على موسى في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةَ سُجَّدًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾^(٣٧). فإن هارون وزير لموسى، وأهمية موسى سابقة له، وقدم هارون عليه رعاية لفواصل آيات السورة، إذا انتظمت على الالف والالف المقصورة في أغلبيها، والله العالم.

الرابعة: أشار الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ) أنه قد كثرت في القرآن الكريم ختم كلمة المقطع من الفاصلة بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن من التطريب^(٣٨) وحكى سيبويه (ت: ١٨٠ هـ) عن العرب أنهم إذا ما ترنموا فإنهم يلحقون الألف والواو والياء، ما ينون، وما لا ينون، لأنهم أرادوا مد الصوت^(٣٩).

وورود النون بعد حروف المد متواكبة في القرآن حتى عاد ذلك صوتياً متجلياً في جزء كبير من فواصل آيات سوره، ونشير على سبيل النموذج الصوتي لكل حرف من حروف المد تليه النون بمثال واحد.

١. وردت الألف مقترنة بالنون في منحى كبير من فواصل سورة الحمن على نحوين: الأول: وردهما متقاطرين، وهما - أي الألف والنون - من أصل الكلمات كما في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾^(٤٠). والثاني: وردهما متقاطرين،



العدد: ١
السنة: ١
٢٠٠٥ هـ / ٢٠٠٥ م



وهما - أي الالف والنون - ملحقان بالكلمة علامة للرفع ودلالة على التثنية كما في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٤١).

ويتحقق في النحوين مد الصوت تحقيقاً للترنم.

٢. وردت الياء مقترنة بالنون في ابعاد كثيرة من فواصل الآيات القرآنية، ففيهما اقتصر الله من خبر نوح عليه السلام قال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَأَنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ * ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * (٤٢). والطريف أن سورة المؤمنين تتعاقب فواصلها الياء والنون أو الواو والنون، شأنها في ذلك شأن جملة من سور القرآن، فكانها جميعاً تعنى بهذا الملحظ الدقيق.

٣. وردت الواو مقترنة بالنون في اجزاء عديدة ومتنوعة من فواصل طائفة كبيرة من السور، فسورة الشعراء فيها تعاقب كبير على الياء والنون مضافاً إليه التعاقب على الواو والنون موضع الشاهد كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَأَنْهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٤٣).

إن ما أبداه الزركشي من ختم كلمة مقطع الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، ليس بالضرورة للتمكن من التطريب، ولكنه يشكل ظاهرة بارزة في صيغ تعامل القرآن الكريم مع هذه الحروف مقترنة بالنون وقد يخفى علينا السبب، ويغيب عنا جوهر المراد، ومع ذلك فهو ملحظ متحقق الورد.



العدد: ١
السنه: ١
٢٠٠٥ هـ / ٢٠٠٥ م



الإيقاع الصوتي في موسيقى الفواصل:

هناك سمات إيقاعية في سياق فواصل الآيات، ومن خلال عبارات الجمل والفقرات التي ارتبطت بنسق جمهرة من آيات القرآن المجيد، نجم عنها كثير من الإشكال في التفسير لوجودها مجارية لزنة جملة من بحور الشعر، وبدأ محررو علوم القرآن، يتصدون للدفاع عن ذلك حيناً ولتفسيره كلامياً احتجاجياً بلغة الجدل حيناً آخر، ولو أنهم عمدوا إلى ربط مثل هذه الظواهر بالإيقاع الصوتي لكان ذلك رداً مفجعاً، ولو فسروها صوتياً لأرتفع الإشكال وتلاشى.

القرآن كلام الله فحسب، ليس من جنس النثر في صنوفه وإن أشتمل على ذروة مميزاته العليا، ولم يكن ضرباً من الشعر وإن ضم بين دفتيه أوزان الشعر جميعاً ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذْكُرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ *﴾ (٤٤).

فهو ليس من سنج ما يتقولون، ولا بنسيج ما يتعارفون، ارتفع بلفظه ومعناه، وطبيعته الفنية الفريدة، عن مستوى الفن القولي عند العرب فالمقولة بأنه شعر باطلّة من عدّة وجوه:

الأول: التأكيد في القرآن نفسه بنفي صفة الشعر عنه، والتوجيه بأنه ذكر وقرآن مبين بقوله تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) ﴿*﴾ (٤٥)

الثاني: الرد في القرآن على دعوى القول بأن النبي شاعر، وأن القرآن منه في ثلاثة مواطن:

١. الملاحظ لأفترائي الموجه إليه، والمعبّر عن حيرة المشركين: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ قَلِيلاً نَأْيُكُمْ أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ (٤٦).
٢. التعصب الأعمى للآلهة المزعومة دون وعي، وبكل إصرار بافتعال الادعاء الكاذب: ﴿وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتَنَا لِّشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (٤٧).



٣. التريص بالنبي ﷺ وتوقع الموت له، بزعمهم أن سيموت شعره المفترض معه! ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَبِّبِ الْمُتُونِ﴾* (٤٨)

الثالث: أن العرب لو اعتقدوا أن القرآن شعر لأسرعوا إلى معارضته من قبل شعرائهم، فالشعر ديوان العرب، وقصائدهم معلقة بالكعبة تعبيراً عن اعتدادهم بالشعر، واعتزازهم بالشعراء، وهم أئمة البيان ورجال الفصاحة، ولكنها مغالطة واضحة ولو كان ذلك لكانت النفوس تتشوق إلى معارضته، لأن طريق الشعر غير مستصعب على أهل الزمان الواحد، وأهله يتقاربون فيه، أو يضربون فيه بسهم (٤٩).

الرابع: إن الشعر إنما يقصد إليه بذاته فينظم مع إرادة ذلك، ولا يتفق اتفاقاً أن يقول أحدهم كلاماً فيأتي موزوناً، فالشعر إنما ينطلق متى قصد إليه على الطريق التي تعمد وتسلك، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء دون ما يستوي فيه العامي والجاهل والعالم بالشعر واللسان وتصرفه، وما يتفق من كل واحد، فليس بشعر فلا يسمى صاحبه شاعراً، وإلا لكان الناس كلهم شعراء، لأن كل متكلم لا ينفك أن يعرض في جملة كلامه ما يتزن بوزن الشعر وينتظم بانتظامه (٥٠). سقنا هذا في حثيثة تنزيه القرآن عن سمة الشعر وصفته، لأنه قد وجد فيه ما وافق شعراً موزوناً، وما يدريك فلعل القرآن يريد أن يقول للعرب: إن هذا الشعر الذي تتفاخرون به، نحن نحيطكم علماً بأوزانه على سبيل الأمثلة لتعتبروا بسوقها سياق القرآن في صدقه وأمانته، ولا غرابة أن يكون القرآن يريد أن ينحو الشاعر بشعره منحنى الحق والصرامة والفضيلة والصدق، ومع هذا وذاك فما ورد من الموزون فيه جارٍ على سنن العرب في كلامها، إذ قد يتفق الموزون ضمن المنثور، بلا إرادة للموزون، ولا تغيير للمنظوم. فقد حكى الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ) أن إعرابياً سمع قارئاً يقرأ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (٥١).



العدد: ١
العدد: ١
٢٠٠٥ هـ / ٢٠٠٥ م



فقال كسرت، إنما قال:

يا أيها الناس اتقوا ربكم
زلزلة الساعة شيء عظيم
فقال له: هذا القرآن، وليس الشعر^(٥٢). فاعتقده لأول مرة شعراً
فحذف أن ليستقيم الوزن فيما عنده. ولوقلنا بالإيقاع الصوتي، وفسرنا
الورود البياني لهذا المظهر الموزون بمجانسة الأصوات، وقارنا عن كُتب
بمناسبة الصوت للصوت، وملانمة النطق بالحروف، ومتابعة الأذن
للموسيقى، والسمع للنبر والتنغيم، زيادة على ما تقدم لكننا قد أحسنّا
التعليل فيما يبدو، أو توصلنا في الأقل إلى بعض الوجوه المحتملة، أو
الفوائد الصوتية المترتبة على هذا المعلم الواضح، والله أعلم.
وقد يقال بأن هذا المعلم إنما ينطبق على أجزاء من الآيات لا الفاصلة
وحدها، فيقال حينئذٍ بأن وجوه الفاصلة في هذه الأجزاء من الآيات هو
الذي جعل جملة هذا الكلام موزوناً، فبدونها ينفرط نظام هذا السلك،
وينحل عقد هذا الإبرام لهذا نسبنا أن يكون الحديث عن هذا الملحظ
ضمن هذا البحث.

ومهما يكن من أمر، فإن ورود ما ورد من هذا القبيل في القرآن ينظر
فيه إلى غرضه الفني مضافاً إلى الغرض التشريعي، وهما به متعانقان.
إننا بين يدي مخزون ثري في هذا الرصد، ننظره وكأننا نلمسه، ونتحسسه
وكاننا نحيا به، فحينما نستمع خاشعين إلى صيغة موزونة منتظمة بقوله
تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْوَثَرَ﴾^(٥٣). فإننا نتعامل مع وقع خاص يذكرنا
بالعطاء غير المحدود للنبي الكريم، وحينما نستمع -موزوناً- إلى قوله
تعالى: ﴿هَمَّاتِ هَمَّاتٍ لِّمَا تَوَعَّدُونَ﴾^(٥٤). تصك أسمعنا بلغة الوعيد،
فتخشع القلوب، وتتحسس الأفئدة.

وحينما نستمع -موزوناً- إلى قوله تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا
تَذَلُّيلًا﴾^(٥٥) نستبشر من الأعماق بهذا المناخ الهادي، ونستشعر هذا



العدد:
السنة: ١
٢٠٠٥ هـ / ٢٠٠٦ م



النعيم السرمدى بإيقاع يأخذ بمجامع القلوب، ويشد إليه المشاعر. وحينما نستمع - موزوناً - إلى قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾^(٥٦). يقرع أسماعنا هذا المصير الشديد العاتي، فيستظهره السامع دون جهد ويجري مجرى الأمثال في إفادة عبرتها وحجتها. وحينما نستمع حاملين إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَلِيلَ فَسَبِّحْهُ، وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾^(٥٧). فإننا نستشعر هذا الأمر بقلوبنا قبل الإسماع، هادئاً متناسقاً، وهو يدعو إلى تسبيح الله وتقديسه آناء الليل وأطراف النهار.

وحينما نستمع إلى قوله تعالى: ﴿نَصْرُ مَنْ أَلَّهَ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾^(٥٨). فغن العزائم تهب على هذا الصوت المدوي، بإعلان النصر لنبيه، والفتح أمام زحفه، فتعم البشائر، وتتعالى البهجة. وحينما نستمع إلى قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(٥٩). فالصوت الرفيق هذا يمس الأسماع مساً رقيقاً حيناً، ويوقظ الضمائر من غفلتها حيناً آخر، وهو يستدر كرم المخائل، ويوجه مسيرة التعاطف، وسدد مراصد الإنفاق، والمسلم الحقيقي يسعى إلى البر الواقعي فأين موطنه؟ إنه الإنفاق مما يحذب عليه، والفضل بأعز الأشياء لديه، وبذلك ينال البر ما فوقه برّاً.

وحينما نستمع إلى قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾^(٦٠). وتمد الفتحة لتكون ألف إطلاق، وتصبح في غير القرآن (اليَتِيمَا) فغنك تقف عند بحر الخفيف من الشعر، وهو من الأوزان الراقصة، تقف عند صرخة مدوية، وجلجلة متأججة تقارن بين التكذيب بيوم القيامة، وبين دعّ اليتيم في معاملته بخشونة، وصده بجفاف وغلظة.

هذه النماذج الخيرة التي تبركنا بإيرادها، والتي تنبه من الغفوة والغفلة، وتدفع إلى الاعتبار والعظة، وتزيد من البصيرة والتدبر، قد أضفى عليها الملحظ الصوتي موسيقاه الخاصة، فعاد القول بصوتياتها من جملة



العدد:
١
العدد:
١
٢٠٠٥ هـ / ٢٠٠٥ م





أسرارها الجمالية، والتأكيد على تناغمها الإيقاعي من أبرز ملامحها الفنية.
هذه ميزة من مزايا فواصل الآيات باعتبار العبارات.



العدد: ١
السنة: ١
١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م



الصوت اللغوي في فواصل الآيات القرآنية

